

رَاعِيَةُ الْغَنَمِ

قِصَّة

جمال بن عبد الله الحيان

الترقيم الدولي :

ISBN : 564-7543-89-8641-

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخل والصدیق

إهداء :

إلى النقاد الذباب ...

الذين لا يرون من الأعمال سوى الهفوات ...

إلى النقاد الحساد ...

الذين لا يعجبهم ولا يرضيهم سوى أن يروك قد توقفت يائسا ...

لا يعزون الفضل وليسوا بأهله ...

أقول لكم ...

لن أتوقف ما دمت أتنفس ... حتى الرmq الأخير ... أسمعتم ... حتى

الرمق الأخير، سأعيدها من جديد ... حتى الموت .

حين نصطدم بأرض الواقع المخيبة للآمال ، نعيش الحزن العميق والأسى العميم ،
متزعين بالانتكاسات في كل وقت وحين .

نسير نحو النجاح بخطى حثيثة ، وعزائونا الوحيد أننا سنصل يوما ما ، فيين البشر
جميعا في كل عصر ومصر ، يتغلغل حب أديّ ، رغم اختلاف عصورهم وأوطانهم
وحظوظهم من الثقافة .

— وهو يقول :

شعرت بخيبة شديدة ، وقد كان شعري عكشا ، وكانت ثيابي باهتة متربة ، وقد
بزت هي في الجمال والفتنة والأدب سائر بنات قومها ، وقد بدت أجمل مما توحى
به ثيابها البسيطة ، كأميرة بعيدة عن قصرها ...

لا يمكن أن أكون قد تخطيت الثانية والعشرين وقتذاك ، لقد كنت أسهد الليل
بطوله ، وقضيت ليالي ساهدا مرتاعا من الفئران داخل الكوخ ، و هوسي بتلك
الراعية جد كبير .

نمت اليوم بطوله حتى انسابت شمس العصر عبر النافذة ، لقد كنت سعيدا بالقدر
الذي يستطيع الطفل وحده بلوغه ، تخبطت باحثا عن المصباح الموجود عند
طرف السرير ، وحدثت بتعب في الساعة .

_ إنها الخامسة مساء ...!!!

وصوت الريح الذي يخترق أشجار النخيل يمتزج وصوت الأمواج المتكسرة وطيور
النورس .

لقد مرت عليّ أوقات عشت فيها لا لسبب إلا أنني احتجت أن أعيش كي أحضن
الراعية ولو لمرة ، منذ الآن فصاعدا سأشرع في حلمي أو حتى مئات قادمة من
الأعوام ، سأحلق مع الطيور التي تملأ الحقول ، هكذا كنت أقول .

لأنه ما من مطرقة تقدر على تهشيم هديني وتحطيم حبي وعشقي ، فلا ينفع في هذه
اللحظة بالذات أي قدر من النصح أو التآلق أو الجدل أو التعاويد .

أرغب في أن أثبت حبي حتى ولو كان آخر ما أثبتته بعد فشلي الذريع في إنقاذ
نفسي من وطني الذي اغتالني .

ليس قرارا مناسبا ، هكذا حالي دائما ، أعيش في تناقض عارم .

فمن وراء ستار من العدوانية وقناع من الاستقلالية ، خرجت أبحث عن حلمي ،
عن وطني ، عن الراعية بين الحقول ، تلك الجذابة المسيطرة ، والتي لحد ما
ستخلصني من حياة الكبت والوجوم ، بسلاح جمالها الفتان ، آخذ نفسي بغير
رفق ولا هوادة ولا راحة ، وأنا أشم النسيم العليل في بحر خضم متلاطم العشاق .
فبحزن ومرر وأنا على قارعة طريق الحياة ، تلتفتني موجة عارمة من الاضطراب ،
وارتباك شديد ، وقد بدأت تلك الحقول تطن بأحاديث عن الراعية والغريب ،
كنت بعيدا عن كل إرهاف للحس وإثارة للمشاعر ، ولكنني استسلمت لسلاحها
الفتاك .

سلاح مرهف حادّ ، كان أوسع أثرا وأبعد مدى ، وكان من العسير عليّ مقاومة
ذلك ، كنت أكره العجز والاستكانة ، إلا أنني أصبحت الآن عاجزا مستكيننا
كسحور تائه بين قرى البلاد .

شعرت بخيبة شديدة كانت الأولى وراء ذلك الجبل الوعر الغامض السامق ، الذي
أصبح ملاذا لعروسي الغالية ، وكنت أخشى أن أبني صرحا عظيما على الرمل
سرعان ما يهوي .

أذوب بين مقاماتها بكل فرح وسرور ، وهي تتسلى بتقويم أظافرها ، جمال
ستخضع له الوحوش وستركن له الثعابين لا محالة ، أشرت لها كتحية صباح بريئة ،

وهي تشير بالمثل بابتسامة صلفه ، ثم أشاحت بوجهها ، والناس المغرقون في
الحقول يراقبون عن كثب ، لقد رأيت أمورا أذهلتني وأخرى مقتها ببساطة ،
ويدي منظار لم أجن منه سوى هتك أعراض الناس والتجسس عليهم ، ساهيا ،
مرتبكا ، حائرا ...

_ كيف السبيل إليك ... !!!

حيث لا بد أن يقع فيها حبي إلى أبد الدهر ، لم أكن حكيما ولا كيّسا بحق ، أردت
أن تطهرنا الشمس ويغسلنا المطر معا ، يدا في يد

بدأت ألكم الشاطئ الحصوي بقبضتي ، لم تنسل دموعي من عيني وأنا أواجه
جراحي وندي ، فبغضب متنام بعيدا عن الأحلام والخيال ، أردت أن أبكي فلم
أجد في عيني دمعا ، لربما جفت من كثرة السهاد مآقيها .

معاناة لا لزوم لها ... كما سبق ... أعيش التناقض والصراع .

لم أتوقع قط أن هذا سيحدث معي ، ولكنه حدث ، هكذا حياتي ، يوجد دائما
أمر ليس على ما يرام ، رغم ما أنشدت من حب ، وما نسجت من كلمات مختزنة
في ذاكرة الكون .

حيث يمر الوقت بكل بساطة ، وللحظة وجيزة ، اقتربت منها أحييها من جديد ،
ردت التحية وأشاحت بوجهها ، ناديتها :

_ أيتها ... !!!

سكتّ نجلا من أن أقول أيتها الراحية ، فهي تستحق لقب الأميرة .

_ أيتها الفتاة ...!!!

لم تكترث لي ولم تظهر أي اهتمام ، وقد بدأت أعاني من جديد ...

إن الحب أكبر غلطة قد يرتكبها المرء فما إن يحس به حتى يهبط في هاوية سحيقة

ملؤها ندم وكره وأطنان هموم .

لم يصبني منها ملل ولا سامة ، رشيقية في غير امتلاء ، رغم أنه لم يكن بها ما يبهر
أو يثير أو يبعث عن الاشتهااء ، جميلة ، حنوية ، دم حلو ، مقبولة لدى كل ناظر
لها ، فمجرد أن تبتسم لك فستحبها بكل تأكيد .

كان الجو صيفيا صحوا إلا من قصاصات السحاب المتناثرة في السماء ، والتي
شكلت شارعا من السيارات المزدحمة على وجه الشمس ، المهم أن الجو كان رديئا.

غمزتها فتملكها الرعب إلى درجة تثلجت معها أطرافها ، كانت شاحبة تلهث كأنها

ارتقت درجا عاليا ، جلسث متهالكة تحت إحدى الصخور العملاقة ، تنتظر

انحسار الحر والأغنام متفرقة بين أشجار النخيل تجتر كلاً الصباح .

كنت نخجولا من أن أواجهها وأعبر لها عن إعجابي الشديد بها ، وكانت زجاجة كاملة من الخمر الرديء كفيلا لشحد الهمة والشجاعة .

ساد صمت قبوري في ذلك الجانب من الجزيرة ، وفجأة على غير انتظار ، وقفت على رأسها مادًا يدي للمصافحة ، مرت دقيقة صمت من التحديق اللذيذ ، ولكي تتغلب على الرجفة الداخلية كتمت أنفاسها ، و أومأت رأسها وأشارت إلي بالجلوس .

__ كيف حالك أيتها الجميلة ، أنا السائح بالجانب الآخر من الجزيرة ، أسكن في الكوخ أعلى التل ، ما اسمك ...!!!

أكتفت بالصمت ونظرات الصدمة والذهول ، وأعدت السؤال مجددا :

__ ما اسمك ...!!!

أشارت إلي وهي تحرك يدها اليمنى باتجاه فمها وأذنيها ، ومفاد ذلك أنها لا تتكلم ولا تسمع ...

لا أكذبكم سرًا ، كم كانت تلك الصدمة قوية ، أردتني قتيلا ، ميتا وأنا حيّ ، لا أدري ما العمل ...!!!

وأحيطكم علما أن كل تلك المشاعر كانت سرايا ، اختفت من غير سابق إنذار ،
فبمجرد معرفتي للحقيقة ، تحجر قلبي ، بل واستحييت من نفسي ، نعم ، هي
الجميلة الحبوبة ، فلربما أحببت الصوت ، أو لربما صوت مناداتها لي ، أو تلك
الحروف حين تخرج من بين ثناياها .

بدأت أتضائل شيئا فشيئا ، لا أدري كيف أتصرف ، جلست بقربها وهي خائفة
مني ، فرائحة الشراب الرديء قوية جدا ، لم أكن أعرف لغة الإشارة ، وكان أول
شيء فعلته أني رسمت لها قلبا على الرمل ، فاحمر وجهها خجلا ، وانصرفت تركض ،
وقسمات وجهها الجميل أنساني كل عيب .

كانت كالعشب النائم الذي لا ينكسر أمام العواصف ، بعيونها الجذابة الناعسة ، ثم
إن الحياة ليست سوى لحظات ثمينة ، تهمننا فيها النهايات بشكل كبير ، رسمت في
خيالي نهاية جميلة ، وقد ترك حب الراعية في قلبي قرحة لا تزول ، فمن المؤلم أن
أكتشف في نهاية المطاف أن حبيبتني صماء بكاء .

أنا الآن في موقف لا أحسد عليه ، فما أصعب أن تعيش في حيرة بسبب قرار ،
ولكني فكرت بقوة وقررت أني سأودع أحزاني ، وأستبدل قلبي بقلب ثان ، ولن
أفشل في النسيان هذه المرة ، لن أنافق حبيبتني ، ولن أحمل ثقلا لا أقدر عليه .

سأحبك دائما أيتها الراحية ، في خيالي وكتاباتي ، وسأنسى يوما أنني اكتشفت تلك
الحقيقة الأليمة بالنسبة لي .

فما أصعب أن أعيش هكذا ...

انتهى بفضل الله وقوته في 7 محرم 1442 هـ / الموافق ل 26 غشت 2020 م